Ex Professo
ISSN : 2543-3512
ISBN : 2016-856
Université Hamma Lakhdar
El- Oued

الأسلوب والأسلوبية بين التأصيل المصطلحي والمعرفي

د/ معمر حجيج
قسم اللغة العربية –جامعة باتنة

يدرس هذا المقال القضايا التأصيلية والمعرفية لمفهوم الأسلوب والأسلوبية في الفكر اللغوي والنقدي العربي والغربي، وهذا المفهوم قد تطور عبر مقاربة ذات مظهرين متباينين: من جهة مظهر فلسفة اللغة وعلم نفس الفرد، ومن جهة مظهر النقد الأدبي المحدد لأطر الفكر والتعبير في تجاوزه نحو تكوين الأعمال الأدبية التي تطرح دائما إشكالية التعبير وأشكال الخطابات والكتابة.

الكلمات المفتاحية : الأسلوب ، الأسلوبية، التأصيل المصطلحي والمعرفي.

Cet essai traite les questions des origines et d épistémologie de la notion de style et de la stylistique dans la pensée linguistique et critique arabe et occidental ,cette notion est donc développée à travers la convergence de deux aspects distincts :d'une part , d'une philosophie du langage et d'une psychologie de l'individu et d'autre part , d'une critique littéraire fixant les cadres de pensée et d'expression , qui va jusqu'à la structuration des œuvres littéraires, qui posent toujours la problématique de l' expression et des formes des discours et de l'écriture .

Mots-clés : Style- stylistique- enracinement de la terminologie et des connaissances.

. المدخل:

الأسلوب من المفاهيم التي لا يمكن تبسيطها؛ لأن الكلام عليه يعني الكلام عن ماهية الإنسان الذي كانت له مقاصد مختلفة من الأسلوب: تواصلية اجتماعية، أو تعبدية روحية، أو أدبية جمالية، أو تأملية فلسفية سواء كانت ملائكية نورانية ،أو شيطانية نارية[1]

ويكشف البحث عن الجذور المعرفية للأساليب اللغوية على أنها أقدم نسق معرفي يرجع إلى أول نشاط إنساني خطابي للتعبير عن تواصله مع حقائق الكون والناس، وينظر إلى تاريخ نشأة دراسة الأساليب اللغوية بأنها سابقة عن أي تفكير فلسفي، ومنذ نشأتها كان لها أعداء وأصدقاء أيضا؛ والأعداء هم الذي يعتقدون أن الذي يقول أحسن يتحرر من الرغبة في فهم الحقيقة، وتصبح من هذا المنظور عبارة عن تقنية مؤسسة على معرفة عوامل امتلاك الوسائل الكلامية التي يتولد عنها مفعول التُأثير الوجداني أو الإقناع المنطقي، وهذه الطاقة التعبيرية للأساليب تجعل منها آلة تساعد على امتلاك قوة التحكم في الكلمات التي تؤدي بدورها إلى التحكم في الأشخاص، ويصبح في مقدور هذا الفهم الخاص تفسير فرضية الانشقاق المعرفي المصاحب لتاريخ فن القول الإنساني ونمطه عند صياغته لمنطق علومه وحقائقه وبخاصة العلوم الإنسانية التي تسودها أنساقا معينة، وتجعلها المحور المركزي لفهم الإنسان ونشاطه المعرفي، ومن ثم تعطي الحجة للذين يتحكمون بصفة كاملة في الأساليب ليصبح في مقدورهم التشكيك في الحقائق الثابتة.[2]

وهكذا فإن الأساليب اللغوية قبل أن تصبح باطلة فقد كانت خطيرة، ومن ثم فقد أدانها أفلاطون بل يرى من العدل إجبارها على المثول أمام المحكمة؛ وإدانتها هي إدانة للسفسطائية، وفي الحقيقة فإن تاريخ الأساليب البلاغية يحقق في وجوده التلاؤم بين حركتين متباينتين: حركة فهم الأساليب متحررة عن الفلسفة أو تكون بديلا عنها، وحركة أخرى تتناول الفلسفة لتجعلها في خدمة تجديد الأساليب باعتبارها نظاما من الأنساق الدلالية من الدرجة الثانية.

1 –- نور ثروب فراي، تشريح النقد، ترجمة محي الدين صبحي، الدار العربية للكتاب–ليبيا ،1991، ص213.

2 – Paul Ricoer , La Métaphore Vive , Editions du Seuil , Paris.1975, p15

كما يؤدي التفكير في فلسفة الحياة إلى البحث عن سبل التواصل الناجح والملائم والمهذب والمعبر، ومن ثم فإن الأشخاص الذين يتحاورون يوجدون في سياقات فكرية ودينية وفلسفية وسيكولوجية واجتماعية معينة، وفي الوقت نفسه فهم يحاولون الوصول إلى اختيار أسلوب للتعبير عن هذا المركب المعرفي الذي يجعل الذوات المتكلمة تخضع لضرورات حقائقها الواقعية والعقلية، وتؤثر مباشرة في عملية الانزياحات الدلالية اللغوية، ومن هذا المنظور يفترض في أي تأسيس ثقافي أن يكون معركة أسلوبية في جوهره لأن أي تغيير لمحتوى التفكير ومنهجه ووظيفته يقتضي اختيار نسق وجعله يسود ويفرض تجديدا معرفيا مستمرا، وهذا التجديد نفسه يتحول بدوره إلى ثان وثالث ورابع، وبهذه الكيفية المتسلسلة والمتلاحقة تتكون النظرية المعرفية التي تتأصل بحسب قواعد لسانية أسلوبية ضمن قواعد تصنيفية جديدة انطلاقا من تطور نظرية العلامات وتحليلها للدوال الأسلوبية.

والأسلوب والإبداع حقيقتان لمعرفة واحدة، وحتى وإن تباينا على افتراض ميلاد الإبداع واكتمال بنيته دون تحديد هوية الأسلوب، غير أنهما يتقاسمان الأدوار في تزاوجهما المعرفي حتى وإن أشير إلى الأسلوب بمقولات عامة تعكس أثره، وتعجز عن تحديده بمعزل عن خطابه، ثم الاصطلاح عليه، وهي البداية الحقيقية لمعرفته التي تمهد لمرحلة ثانية يصبح فيها أكثر تميزا وتحديدا بوصفه نسقا كليا في علائقه المرجعية وطبيعته التركيبية ومحتواه الفكري والنفسي، وفي هذه الحالة ينتقل إلى مرحلة علمية لكنه يبقى إدراكه حدسيا حسيا ناتجا عن أثر قول في سياق خطابي لروح ثقافية حضارية، وفي المرحلة الثالثة يرقى إدراكه إلى وجود تجريدي لهويته المفهومية، ومن ثم يتوسع مجال تعرفه، والنظر إليه بكونه ما هو إلا صاحبه وحضارته بجميع منظوماتها التي لا وجود لها إلا في هذه المجموعة من أساليب الخطابات، وما تحدثه من مثيرات جمالية وخبرات معرفية متأتية من عمليات التلقي اللانهائية؛ ومجموع هذه القضايا والإشكاليات هي اختصار لتاريخ الأسلوب المعرفي، وروحه الإبداعية وحيويته الفكرية ضمن جدله المفهومي التوصيفي الجمالي المنهجي.

ثانيا ـ التأصيل اللغوي للأسلوب :

- **1.2. التأصيل اللغوي للأسلوب في المعاجم العربية:**

جاء في لسان العرب أن: " السطر من النخيل وكل طريق ممتد فهو أسلوب فالأسلوب الطريق والوجه والمذهب، يقال أنتم في أسلوب سوء ويجمع أساليب والأسلوب الطريق تأخذ فيه والأسلوب الفن: يقال أخذ فلان في أساليب من القول أي في أفانين منه"[3].

فهذه المعاني تعني الانتظام والواجهة المحددة لهوية الشيء ومسلكه مما يقربها من المعنى الواسع للأسلوب وظيفيا وفنيا وحضاريا، وتشترك هذه الدلالات كلها في مفهوم جامع تتفاعل فيه المرجعية الحسية والمعنوية، وتكشف على أن الأسلوب جوهر لمظهر خطابي بلغ درجة من التوحد الفكري والوجداني والروحي، ولا يستأنس بهلامية وجوده وزئبقية تكوينه إلا من خلال الروح الخلاقة لأنه هو تلك الروح المعبرة عن حكاية الإنسان في غربته ومعاناته إزاء قضايا الوجود والمصير والمآل .

ويمكن أن نتجاوز التخوم المتافيزيقية للأسلوب إلى المعنى الوظيفي للفظه ؛فقد ورد بمعنى الفن قبل ابن منظور في معاجم سابقة مثل: الصحاح للجوهري[4] .

- **2.2 . التأصيل اللغوي للأسلوب في الخطاب الشعري والقرآني :**

لم يأت لفظ الأسلوب في أشعار الجاهليين إلا في شطر رجزي للأعشى :[5]

أُنوفُهُمْ، بالفَخْرِ، في أُسْلُوبِ، وشَعَرُ الأَسْتاهِ بالجَبوبِ

ولم يأت بعد ذلك في أشعار المتأخرين إلا في بيت من قصيدة لأبي نواس ،وآخر للبحتري:

جياشة تذهب في أسلـوب بصائك من علق صبيب [6]

إذا بدأت لنا أسلوب شـوقي رأينا في التصابي ما ترينا[7]

3- ابن منظور: "أو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، مادة "أسلوب" الطبعة الأميرية بولاق الجزء الأول، القاهرة، 1300هـ ص:17.

4 – "الأسلوب" الفن، مادة "سلب" ص (308)

5–ابن منظور ،لسان العرب ، ج1 ص 17

6– المصدر نفسه.

وقد استخدم ابن هانئ لفظ الأسلوب بمعناه الاصطلاحي النقدي في بيت شعري:

ولا مدح إلا للمعز حـقيقة يفصل درا والمديح أساليب[8]

وجاء بعده ابن حربون، وهو من شعراء الأنموذج فاستخدم لفظ الأسلوب بمعنى الطريق في بيت من قصيدة تضم تسعة أبيات:

خليلي حثا بي المطي فمـا لنا على غير حي المالكية أسلوب [9]

وجاء فعل: "سلب" في أشعار الجاهليين والإسلاميين وغيرهم، ومنهم: أوس بن حجر، والمثقب العبدي، وأمية بن الصلت، وسلامة بن جندل، وكعب بن زهير، وذو الرمة، وعمر بن ربيعة، وأبو نواس، وصريع الغواني ، وابن المعتز، وأبو تمام، والمتنبي ،وأبو العلاء المعري، والشريف الرضي[10] ، ولم يأت في القرآن الكريم إلا مرة واحدة في قوله تعالى: "**وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب**".[11]

- **3.2 . التأصيل اللغوي للأسلوب في المعاجم الأجنبية:**

وردت كلمة الأسلوب في المعجم الأدبي الفرنسي الذي يبدأ بتقرير حقيقة غموض مصطلح الأسلوب(style) ،ثم بعد ذلك يلتجئ إلى المنهج التاريخي ،و التمييز الشكلي لتيسير مهمة الفهم فيقول:" إن كلمة الأسلوب(style)، انتقلت إلى اللغات الغربية من اليونانية عن طريق اللاتينية، وكانت تعني الريشة أو المثقب المستخدم في الكتابة، وقد استخدمت لأول مرة في الفرنسية في القرن 14م استخداما عاما، وكانت تعني كل أنواع التعبير والكلام، وبصفة خاصة فقد كانت تعني نموذجا قانونيا للتقاضي.

7– المصدر نفسه .

8 – ابن هانئ الأندلسي ، الديوان ، دار صادر ، بيروت ،1400– 1980 ،ص 36.

9– ابن رشيق ، أنموذج الزمان في شعراء القيروان ،جمع وتحقيق محمد لعروسي المطوي وبشير البكوش،الدار التونسية للنشر والتوزيع ،تونس 1406هـ1986، ص 105.

10 – C.D. الموسوعة الشعرية ، برنامج البحث "مادة أسلوب"

11– سورة الحج ،الآية ،73.

وهكذا فإن مفهوم الأسلوب تحول من أداة الكتابة ليصير نموذجا وشكلا وحدثا للخطاب، ونستطيع اليوم أن نتكلم عن الأسلوب مطلقا، ويكون لكل عمل أدبي أسلوبه الخاص، واستعمال الأسلوب بهذه النوعية اللغوية الدقيقة يضفي عليه قيمة تعبيرية في مقدور النص امتلاكها ،أو يعجز عن ذلك، وهذه النوعية المفترضة هي: وحدة النص وترابطه الداخلي وتأثيره في المتلقي، وتكون مجموعة هذه التنويعات الجمالية المتميزة والمعروفة عامة عن الأسلوب هي نفسها في حالة محاولتنا التعريف بها من الوجهة الأدبية"[12]

وتكاد تتفق بقية قواميس اللغات الأوروبية الرئيسة مع القاموس الفرنسي، في تحديده للأصول اللفظية الدلالية لكلمة الأسلوب، ولا عجب في ذلك فهي ترجعها كلها إلى أصل يوناني أو لاتيني، ومنها على سبيل المثال قاموس"أوكسفورد"[13]

وجماع القول فإننا نلاحظ أن معاني الأسلوب في القواميس العربية أكثر اختصارا وتركيزا وإلماما بالجوانب الحضارية من القواميس الأجنبية التي يبدو أنها أكثر اهتماما بالجوانب العملية والتقنية للأسلوب ،وأكثر توسعا في الإحاطة بالجوانب اللسانية، ووحدات بناء الخطاب، ووسائل تجويده.

ثالثا. التأصيل المعرفي للأسلوب والأسلوبية في المعاجم المتخصصة :

- **1.3 – المعاجم العربية المتخصصة:**

إن المعاجم العربية المتخصصة لم تدرج مصطلح "الأسلوب" إلا في إطار الصنف البديعي المعروف بأسلوب الحكيم،أو أصناف علم المعاني المعروفة بالأسلوب الخبري والإنشائي وأسلوب القصر، ونضرب لذلك مثلا بالتعريفات للجرجاني[14]،وكذلك بكليات الكفوي [15]،ولم تحدد الأسلوبية لأنها بالطبع لم تدخل بعد في النظرية المعرفية للعلوم الأدبية

12 –J.P. de Reaunachais, Daniel couty Alain Rey , dictinnaire de la litterature de langue francaise, Bordas, Paris, 1989, p:684

(13 – صلاح فضل، علم الأسلوب، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ،ط1 ، 1405هـ– 1985م ، ص82.

14 – الجرجاني، أبو الحسن علي بن محمد ، التعريفات، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ،ط 1 (د.ت) ص20

15 – الكفوي،أبو البقاء أيوب ، الكليات، مؤسسة الرسالة ،بيروت ،ط1 ، 1412هـ 1992 م ، ص 111

عند العرب كغيرها من العلوم الأخرى التي حددت مجالاتها ،وصيغت مبادئها، وقننت قواعدها ،وتبينت مناهجها.

- **2.3 – المعاجم المتخصصة غير العربية:**

حاول (Greimas) في معجمه السيميائي، تحديد مفهوم "الأسلوب والأسلوبية"، فقال عن الأول بأنه : مصطلح مأخوذ من النقد الأدبي ومن الصعوبة إن لم يكن من الاستحالة تحديده سيميائيا ،وقد ظل مرتبطا بمقاربة علم اجتماع اللهجات إلى غاية القرن الثامن عشر ، وكان هذا المفهوم يتجاوب أكثر مع أنماط الخطاب ضمن مفهوم علم اجتماع لسانيات السجلات، وأصبح في القرن التاسع عشر يعني الخصائص المتفردة لكاتب من الكتاب، واقترب من التصور الحالي لفردانية الكون.

وأما مفهوم الأسلوبية فقال عنها بأنها :" تعني الطرائق الأسلوبية التي يمكن دراستها بمنهج آني مجتمعة في نظام وسائل التعبير ضمن لغة معينة ؛و يقوم هذا النظام آنذاك بصفة خفية بتجسيد لساني للظواهر الحسية للانفعال، وهذه الظواهراللسانية الانفعالية كما تصورها (بالي) أصبحت تعني عنده الأسلوبية اللسانية.

والأسلوبية لم تفلح بعد لتصبح مادة لعلم مستقبلي، و توجه اهتماماتها إلى التعريف والتصنيف للطرائق الأسلوبية، وتعمل على تنصيص ومقارنة الصور البلاغية، وهذه التفسيرات نفسها لهذه الطرق الأسلوبية قد تخلق صعوبات تحدث انزياحات في داخل الأسلوبية نفسها"[16].

وفي الواقع فإن تعقيد نظام الأسلوب في تركيبه وبالقدر نفسه في دلالته وتحليله . وبخاصة في النصوص الأدبية . يحتم علينا لأغراض استراتيجية التركيز على وجهة نظر واحدة، ومن ثم نسعى إلى وضع تحديد لوصفه، ونحيد على الأقل بشكل مؤقت مجموعة

16◦A. J. Greimas et J. courtés, Semiotique dictionnaire raisonné de la théorie du langage,Hachette .Paris P: 366

الآثار النصية الأخرى، وتبعا لذلك فإن الحدود بين الدلالية والأسلوبية أمر إجرائي وليس تصنيفي أو تبويبي.

كما كان (Barthes) يسعى في كتاباته الأولى[17] إلى تحديد الأسلوب بمقابلته بالكتابة، وبحسبه فإن الأسلوب سيصير من خلال فردانية الكون متكونا منتظما بحسب الأصناف التيمية في مجموعة التجاذبات في مقابل مجموعة التنافرات ليصبح معبرا حقا ،وفي مقابل ذلك فإن مفهوم الكتابة سيكون . كما نعلم . موفقا متى كان الأسلوب في تلك الحالة لم يتوخ الاختيار أو العمق.[18]

وهكذا فقد أصل الأسلوبية وحددها بكونها ميدانا للأبحاث التي ترجع إلى التراث البلاغي، ولكنها لم تتأصل في فرنسا إلا في نهاية القرن التاسع عشر، وكانت تعتمد أحيانا على الليسانيين وأحيانا أخرى على الدراسات الأدبية.

- **3.3- حدود الأسلوب بين الإثبات والإنكار :**

يثير هذا التوسيع والتضييق المعرفي لمجال الأسلوب، ثم لمفهومه الحيرة المؤدية إلى النقيضين: اليقينية من جهة والتشكيكية من جهة أخرى في وجوده شأن أي قضية معرفية كبرى، ومن ثم تصبح الأسلوبية أو علم الأسلوب وهما من الأوهام.

وإذا كان أغلب الدارسين والمفكرين يسلمون بصفة إجرائية بآثار الأسلوب الحسية ،ويبنون جميع نظرياتهم وتحليلاتهم له على هذا الافتراض، فإن (Graham) يشكك أصلا في هذا الافتراض معتمدا على نظرية (Bloomfield) التي تقول:"بأن التعبيرات إذا اختلفت شكلا ،فإنها دائما تختلف معنى أيضا"[19] ،ومن ثم فهو لا يؤمن بالتعبير عن الفكرة الواحدة بالطرق المختلفة مما يؤدي إلى اختفاء الأسلوب، وفي هذا السياق يقول "ريجاردم أوهان" :" يستطيع الناقد أن يتحدث عما يقول الكاتب لكنه لا يستطيع التحدث عن الأسلوب لأن تماثله البارع . الفكرة الواحدة للشكل الواحد . لا يفسح له المجال للتنويع الفردي ،وهو ما

17 –Roland Barthes .Le Degré Zéro de l 'écriture .Editions du Seuils . Paris .1972.p 14

18-A. J. Greimas et J . courtés , Op. cit . P: 366 .

19– غراهام هوف ،الأسلوب والأسلوبية ، ترجمة كاظم سعد الدين ،،آفاق ، العراق ، 1985 ،ص21

نقصده عادة بالأسلوب . " [20]، كما أن (B.Gray) أيضا شكك في وجوده من جراء تباين مفاهيمه ،والأسلوب عنده " ليس إلا اختلاقا من اختلاقات العلماء، الاختلاق الذي لا يقابله شيء في الواقع " [21]،وهؤلاء المتشككون هم قلة بالمقارنة إلى المتيقنين من وجوده الذين يستندون على حقائق بعض التطورات في المدرسة التوليدية التحويلية التي ترى أن مسألة الترادف مازالت مطروحة ، ومن ثم فإن فرضية الأسلوب ما زالت قائمة [22]،وهذه الفرضية تصل إلى درجة اليقين بحسب ما يرى (Blith) من أن هذه اليقينية في وجود الأسلوب تستند إلى الآتي:

1.. الأسلوب يمثل اختيارا بين مدخر من الإمكانيات.

2 . الأسلوب خاصية فردية (للنص).

3 . الأسلوب هو نتيجة المعايير والمواصفات ومنطلقها ".[23]

ولا غرو فإن أي تشكيك في وجود الأسلوب يؤدي بالضرورة إلى التشكيك في وجود الإنسان نفسه ،ويعود بنا مرة أخرى إلى "كوجيطو" (Descartes) لإثبات يقينية وجود الإنسان من تفكيره ،ويمكن القول بصيغة أخرى :أنا أفكر فأنا اختار التعبير عن أفكاري بطرق مختلفة ،ومن ثم فأنا موجود ،ووجود الأسلوب لاينفصل عن وجود الإنسان الذي يسمو بهذه اليقينية الأسلوبية المعرفية ،ولهذا اختار الله تعالى آخر رسالة سماوية لتكون معجزتها أسلوبية كاملة لتعود بالإنسان إلى البدء حيث الفطرة والنقاء والصفاء والطهر.

رابعا . التأصيل المعرفي الإجرائي للأسلوب والأسلوبية في الفكر النقدي :

- **1.4 . التأصيل المعرفي الإجرائي للأسلوب في التراث النقدي العربي:**

20 – نفسه ص 21

21– هنريش بليث، البلاغة والأسلوبية ، ترجمة محمد العمري، منشورات دار سال ،الدر البيضاء –المغرب(د.ت) ، ص33.

22 –المرجع نفسه، ص 21

23– المرجع نفسه ، ص33.

ترجع أول إشارة للأسلوب إلى صاحب مقدمة شرح حماسة أبي تمام ،ثم لصاحب الأنموذج والعمدة، وليس لعبد القاهر الجرجاني كما تذكر بعض الدراسات التي أرخت للجذور اللسانية الاصطلاحية للأسلوبية العربية ،وربما ابن هانيء كان قبلهم إذا محونا الفروق بين السياقات المعرفية لكلمة الأسلوب في الخطاب الشعري والنقدي .[24]

وإذا تجاوزنا مرحلة إدراك النقاد لأثار الأسلوب التعبيرية والتركيبية والجمالية قبل المرزوقي ،فإن هذا الأخير كان من أوائل النقاد الذين جمعوا بين الاستخدامين : المفهومي والاصطلاحي ، حيث يقول في مقدمته لحماسة أبي تمام : ".. إن أبا تمام معروف المذهب فيما يقرضه، مألوف المسلك فيما ينظمه نازع في الإبداع إلى كل غاية، حامل في الاستعارات كل مشقة، متوصل إلى الظفر بمطلوبه من الصنعة أين اعتسف وبماذا عثر، متغلغل في توعير اللفظ وتغميض المعنى أنى تأتى له، وقدر؛ وهو عادل فيما انتخبه في هذا المجموع عن سلوك معاطف ميدانه، ومرتض ما لم يكن فيما يصوغه من أمره وشأنه فقد فليته فلم أجد فيه ما يوافق ذلك الأسلوب إلا اليسير ومعلوم أن طبع كل امرئ . إذا ملك زمام الاختيار. يجذبه إلى ما يستلذه ويهواه ويصرفه عما ينفر منه ولا يرضاه"[25]

لقد وازن الناقد بين أسلوب الشاعر وأسلوب الأشعار التي اختارها ،وقد استخدم لفظ الأسلوب وعنى به جميع الخصائص الفنية المتفردة التي يتميز بها شاعر عن شاعر، كما عنى به من جهة أخرى الخصائص النوعية للشعر التي يشترك فيها كل الشعراء.

كما أن استخدامه لمصطلحات الاختيار والتفرد، والانتخاب يعد من المنطلقات المنهجية المنطقية لعقلنة الوجود الأسلوبي الأمر الذي يجعل هذا الناقد أكثر استيعابا لوظيفة الأسلوب، وفهمه لجدلية وجوده التي لا تنفصل عن أثاره الناتجة من عمليات الإبداع والتلقي، ولا وجود للأسلوب خارج هذين الطرفين، وهكذا تكون نظرة هذا الناقد وتشريحه

24– وهذا واضح من أن وفاة ابن هانئ كانت سنة 362هـ ،ووفاة المرزوقي كانت سنة 421هـ ،ووفاة ابن رشيق كانت سنة 456هـ ،ووفاة الجرجاني كان سنة 471 أو 474هـ ،والدراسات التي اثبت الريادة للجرجاني ،هي : محمد الهادي الطرابلسي ،قضايا الأدب العربي ،سلسلة الدراسات الأدبية تونس ،1978،ص262.

25– المرزوقي، شرح الحماسة، "مقدمة المرزوقي" م1 ، تحقيق أحمد آمين ،وعبد السلام هارون ،دار الجيل ، بيروت ، ط1 ، 1411هـ– 1991م ص4.

لأطراف الأسلوب ومظاهر جوهره الفردية والنوعية التي تستوعب الصور البلاغية والمواقف النفسية والمزاجية للمبدع وآثارها في المتلقي، بالإضافة إلى ما يلتقطه من المنظومات الدلالية الإحالية للميراث النصي الغائب .

ويتردد أيضا لفظ الأسلوب في "أنموذج الزمان "و"العمدة" بمعاني مختلفة يركز بعضها على طبيعة الألفاظ التعبيرية الدلالية التركيبية وتميزها، وجدتها، والجوانب الشخصية الذاتية المتعلقة بالأمزجة والطبائع؛ مثل قوله عن الشاعر" أبو إسماعيل" الكاتب: "كان شاعر كتابي الشعر، لطيف الألفاظ نظيفها رشيق المعاني وجيزها (صافي مزاج الطبع على أسلوب واحد)"[26]

ويتكلم عن ابن البغدادي فيقول عنه: "وطريق عبد الله في الشعر خارجة عن طرقات أهل العصر تعاليا وتغاليا كأنه جاهلي المرمى ملوكي المنتمى فقري الأسلوب"[27]

ويتكلم ابن رشيق عن الأسلوب في هذه الفترة التي عاش فيها بصيغة المجهول للدلالة على شيوع الظاهرة، ويعني ذلك أن الأسلوب كان معروفا وشائعا قبل ابن رشيق، ويظهر خاصة في فنون الشعر وأغراضه. يقول في العمدة عن قضية المفاضلة بين الفرزدق وجرير: ".. يحكى أن الفرزدق لما وقع بينه وبين جرير ما وقع وحكم بينهما قال بعض الحكام: الفرزدق أشعر، لأنه أقواهما أسر كلام، وأجراهما لأي أساليب الشعر، وأقدرهما على تطويل وأحسنهما قطعا فقدم بالقطع كما ترى."[28]

وجاء بعد ذلك عبد القاهر الجرجاني فسار في فهم الأسلوب في السياق العام المستوعب لنظرية النظم ومظاهرها اللغوية ومناهجها الإبداعية والفنية، فأورده حين تكلم عن السرقات التي يرى أن أهم نماذجها تقع في الأسلوب بهذه الكيفية التي نراها إلى حد ما مفهومة في تلك الفترة ،وتعني الاتباعية الحرفية في المستوى النحوي للأسلوب. يقول: "اعلم أن الاحتذاء عند الشعراء، وأهل العلم بالشعر وتقديره، وتمييزه أن يبتدئ الشاعر في معنى له

26- ابن رشيق، أنموذج الزمان، ص50.

27- المصدر نفسه، ص204.

28- ابن رشيق ، العمدة ، 186/1

وغرض أسلوبا –والأسلوب الضرب من النظم والطريقة فيه– فيعمد شاعر آخر إلى ذلك الأسلوب فيجئ به في شعره فيشبهه بمعنى يقطع على أديمه نعلا على مثال نعل قد قطعها صاحبها فيقال قد احتذى على مثاله"[29].

كما نجد أيضا قسما كاملا من كتاب منهاج البلغاء بعنوان "الأسلوب" يتكلم فيه عن الطرق الشعرية وما تنقسم إليه، وما ينحى بها نحوه من الأساليب والتعريف بمآخذ الشعراء، ثم يتكلم عن طريقين للتعبير: طريق الهزل وطريق الجد، من حيث تكون ملائمة للنفوس أو منافرة لها من القوانين "البلاغية"[30]، ثم يصنف الأساليب بحسب مشاعر الناس وحالتهم النفسية والخارجية فيقسمها إلى أقوال مفرحة وأقوال شاجية وأقوال مفجعة، وأقوال مؤتلفة"[31]، ثم يعرج إلى ما يجب اعتماده في تحسين موقع الأسلوب من النفوس، واختيار "أفضل الأحوال الطيبة والسارة وأجدرها ببسط النفوس وذكر أفضل الأحوال الناجية بالنفوس وأجدرها بأن ترق لها النفوس في ذكر أو على الأحوال الفاجعة إلى الإشفاق والجزع حيث يقصد ذلك"[32].

ومن جهة أخرى فهو يقدم تعليمات أسلوبية للشاعر ويوصيه بألا "... ينحى بالمعاني أبدا منحى واحدا من التخييل أو الإقناع ولكن تردف التخييلية في الطريقة الشعرية بالإقناعية والإقناعية في الخطابة بالشعرية والتصرف في المعاني على هذه الأنحاء يحسن الأساليب من النفوس"[33]

ويكون منهاج البلغاء بهذه الكيفية من أكثر الكتب النقدية تقليبا لمصطلح الأسلوب من جميع جوانبه الفنية المتجلية في عملية الإبداع الشعري وتلقيه، فهو بحق قد استوعب النقد والبلاغة وفلسفتهما الجمالية السابقة ،وأضاف إليهما من تجاربه النقدية الخاصة به

29– عبد القاهر الجرجاني ،دلائل الاعجاز، تحقيق السيد محمد رشيد رضا،دار المعرفة ن بيروت ،1402هـ–1981م ، ص361.

30 - حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء ،تقديم و تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة ،دار الغرب الإسلامي ،بيروت ،ط3 ،1986 : ص327.

31 - المصدر نفسه، ص356.

32 - المصدر نفسه، ص357

33 –ا لمصدر نفسه ص 359

وبعصره ،فكان بهذا الاستيعاب لظاهرة الأسلوب الشعري يمثل ظاهرة متميزة في تاريخ النقد الأسلوبي العربي سواء من الذين سبقوه أم الذين جاءوا بعده.

يقول :" إن أساليب الشعر تتنوع بحسب مسالك الشعراء في كل طريقة من طرق الشعر، ويجب تصعيد النفوس فيها إلى...الخشونة أو تصويبها إلى سهولة الرقة أو سلوكها من هنا وسطا"[34].

وإذا كان النقاد السابقون يركزون على التقاط النص الآني لكثير من قوام مادة بنيته الفنية من نصوص سابقة أو متزامنة أو الامتصاص الذاتي للنص نفسه، كما يولون أهمية لآثار الأسلوب في المتلقي، ويحاولون من خلال ذلك تفسير جمالياته ،فإن أكمل نظرة في التعريف بالأسلوب في فكرنا النقدي العربي القريبة من النظرية التوليدية التحويلية؛ ما جاء في مقدمة ابن خلدون حيث يقول: "... لنذكر هنا سلوك الأسلوب عند أهل الصناعة – صناعة الشعر وما يريدون بها في إطلاقهم، فاعلم أنها عبارة عندهم عن المنوال الذي تنسج فيه التراكيب، أو القالب الذي يفرغ فيه، ولا يرجع إلى الكلام باعتبار إفادته أصل المعنى الذي هو وظيفة الإعراب، ولا باعتبار إفادته كمال المعنى من خواص التركيب الذي هو وظيفة البلاغة والبيان ولا باعتبار الوزن كما استعمله العرب فيه الذي هو وظيفة العروض.

فهذه العلوم الثلاثة خارجة عن هذه الصناعة الشعرية، وإنما يرجع إلى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص وتلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها ويصيرها في الخيال كالقالب أو المنوال ثم ينتقي التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار الإعراب والبيان فيرصها رصا.

كما يفعله البناء في القالب أو النساج في المنوال، حتى يتسع القالب بحصول التراكيب الواقعة بمقصود الكلام ويقع على الصورة الصحيحة باعتبار ملكة اللسان العربي فيه، فإن لكل فن من الكلام أساليب تختص به، وتوجد فيه على أنحاء مختلفة."[35]

34 – المصدر نفسه ص354

35 – ابن خلدون، المقدمة، تحقيق علي عبد الواحد وافي ،ج 4 ،القاهرة، 1960 ، ص 129.

لقد حاول شكري محمد عياد الربط بين تعريف ابن خلدون للأسلوب بحسب صورته الذهنية وبين ما قال به تشومسكى عن الأبنية العميقة التي" يستطيع الإنسان بمراعاتها أن يخلق عددا لا يحصى من الجمل التي لم يسبق له سماعها، ولكن الذي يعنينا هنا هو أن ابن خلدون تصور البنية العميقة، أو الهيئة الذهنية التي يصدر عنها الشعر أو النثر تصورا لا يكاد يختلف عن تصور النحويين لقواعدهم إلا في شيء واحد، وهو أن البنية الذهنية في الأسلوب بنية معنوية"[36].

وذا التعريف يعود بنا إلى حازم فيقدم لنا نصا نعده قريبا في كماله من النص السابق، وجاء في الفقرة التي عنون لها بـ "العلم بكيفية الاستمرار في الأساليب والاطراد عليها وما يحسن اعتماده فيها كما كانت الأغراض الشعرية يوقع في واحد منها الجملة الكبيرة من المعاني والمقاصد وكانت لتلك المعاني جهات فيها توجد مسائل منها تقتني لجهة، وصف المحبوب وجهة وصف الخيال وجهة ...وما جرى مجرى ذلك في غرض النسيب، وكانت تحصل للنفس بالاستمرار على تلك الجهات والنقل من بعضها إلى بعض وبكيفية الاطراد في المعاني صورة وهيأة تسمى الأسلوب وجب أن تكون نسبة الأسلوب إلى المعاني نسبة النظم إلى الألفاظ لأن الأسلوب يحصل عن كيفية الاستمرار في أوصاف جهة من جهات غرض القول... فكان بمنزلة النظم إلى الألفاظ الذي هو صورة كيفية الاستمرار في الألفاظ والعبارات والهيئة الحاصلة عن كيفية النقلة من بعضها إلى بعض وما يعتمد فيها من ضروب الوضع وأنحاء الترتيب"[37].

ويعد هذا التحديد جديرا بالتقدير الريادي في تلك الفترة التي ربط فيها بين فنون القول الشعري، أو أغراضه ،والصور الأسلوبية المناسبة لها ، لكننا نؤاخذه بحسب قول الطرابلسي في "هذا الفصل الواضح بين الأسلوب الذي يكون في المعاني وبين النظم الذي يكون في الألفاظ حسبه والذي وراءه إمكانية الفصل بين اللفظ والمعنى، غير أنه لا يرى أن الأسلوب

36 – محمد شكري عياد، مدخل إلى علم الأسلوب، منشورات إصدقاء الكتاب ، لقاهرة ن 1986 ،ص20.

37 – حازم القرطاجني، مناهج البلغاء وسراج الأدباء ص: 363.

يقابل النظم قطعا، فليس الأسلوب إلا ضربا من النظم عنده، ولكنه نظم مخصوص بالمعاني "[38].

"لكنه في مقابل ذلك فقد ربط بين الأسلوب، وصور إخراج الكلام لا بأغراضه؛ وبهذا أوحى بذهابه إلى أن الأسلوب أعلق ببنية النص الدالة عنه

ولم يقيد حازم الأسلوب بأساليب العرب الجارية المتنوعة كما فعل ابن خلدون– بل ترك المجال واسعا لتصور أن الأسلوب يمكن أن تكون أصوله في نفس باثه لا في ثقافته وأوحى بروح التجدد الذي يتميز به الأسلوب عن البلاغة"[39].

وهكذا يبدو بأن مفهوم الأسلوب كان متداولا عند النقاد العرب منذ المحاولات النقدية المنهجية الأولى ، وكذلك عند البلاغيين، ولكن النظر إليه بكونه يمثل حقلا معرفيا متميزا بمصطلحاته لم يظهر إلا في وقت متأخر ،ويكفي بحسب الطرابلسي أن الجاحظ على الرغم من إشاراته المختلفة في كتبه إلى ما يعد مقاربة لفهم الأسلوب فإن مصطلح الأسلوب لم يرد إطلاقا في كتابه البيان والتبيين.[40]

ويمكن لنا أن نلخص ما توصل إليه الطرابلسي من خلال دراسته للفكر الأسلوبي عند العرب في القديم والحديث، وبحسب رأيه فإن الأسلوب من حيث مصدره كان نظما، ومن حيث مظهره كان قالبا ذهنيا ،ومن حيث مآله كان فنا ،لكن مداه ظل يتراوح بين الخصوصية والاشتراك ،وإمكانياته التعبيرية تكون في الأغراض كما تكون في الفن؛ وماهية الأسلوب ليست إلا الإنسان والرسالة والعصر، ومقوماته ليست إلا تجوزا واختيارا وإيحاء[41].

- **2.4.التأصيل المعرفي للأسلوب والأسلوبية في الفكر النقدي الأدبي الحديث:**

38 – محمد الهادي الطرابلسي " مظاهر التفكير في الأسلوب عند العرب " قضايا الأدب العربي ،مركز الدراسات، الجامعة التونسية 1978، ص 271

39 – المرجع نفسه، ص271.

40– المرجع نفسه، ص 262

41 – المرجع نفسه، ص 257–298

إن الفكر النقدي الحديث ينوع من مقارباته في فهم الأسلوب، وتحديد أنواعه، ومدارسه،وهذا الفهم المترامي لطبيعة الأسلوب وفلسفاته الجمالية وألوانه وأشكاله، وأنماطه تمكننا من الكلام عن أسلوب عصر أو حركة فنية كالأسلوب الكلاسيكي، والأسلوب الرومانسي، والأسلوب الرمزي، والأسلوب الواقعي، والأسلوب الشعري، والأسلوب القصصي، والأسلوب الدرامي، وسيكون من الأفضل لنا إرجاع هذا التصنيف إلى مفاهيم تخص المرحلة والنوع والطراز، وتتراكم لتنتهي في الأخير إلى مجموعة من الأسلوبيات هي: أسلوبية العصور الأدبية، والمدارس الأدبية، والأنواع الأدبية، وقد نهبط إلى مستوى الشخصيات والأعمال الأدبية.

يقول علي أبو ملحم: "إن الأسلوب هو الفن بعينه، أليس الأسلوب طريقة التعبير عن التفكير باختيار الألفاظ ورصفها في عبارات جميلة ؟ وهل الفن شيء غير هذا؟ ألا يقوم فن الموسيقى على اختيار الأصوات وتلحينها في أنغام منسجمة ؟ ألا يقوم التصوير في اختيار الألوان ومزاوجتها في أشكال متناسقة"[42].

ويقول فايز مقدسي الأسلوب هو: "الروح العمومي للأمة تحدوه رغبة التعبير عن ذاته جماليا، أو عن نقطة مكثفة بلغها، من مساحة ذاته، وهو أمر يعني أن يتحول الروح إلى رمز فيحتاج اللغة ضرورة وإلا ظل تصورا مبهما، حيث أن الرمز يحتاج دائما إلى صيغة أبجدية يتشكل فيها ليكتسب صورته ووجوده ويتحول في التاريخ إلى معنى، حيث أن التاريخ وبالتالي الحضارة ليسا سوى تحول الرمز الدائم إلى معنى"[43]

وحينما نتكلم عن أسلوب عمل أدبي، فإن هذا الكلام لا ينفصل عن وحدته وتماسكه، وبهذا يتسنى لنا الحكم على أن عملا أدبيا ما يملك أسلوبا معينا متميزا، ويفتقد إليه عمل أدبي آخر، ويبقى هذا التصنيف عاما ومجردا ويصعب استغلاله أو التعويل عليه في دراستنا لأي خطاب.

42 – علي أبو ملحم ،في الأسلوب الأدبي ،المكتبة العصرية ،بيروت ،1968،ص112

43– فايز مقدسي ، الأسلوب وجدلية اللغة العربية،دار العودة ، بيروت ، (د.ت) ص:41.

وقد نعتبر الأسلوب في كل هذه الحالات والمستويات انحرافا عن المعيار، ولكن يصعب القول بأن أسلوب أي عصر أو مدرسة أو شخصية أو عمل أدبي هو انحراف عن مثيله السابق أو اللاحق له إذ لا يمكن الجزم بأن أسلوب ابن المقفع أو أبي تمام أو المتنبي أو أبي حيان التوحيدي أو جبران هو انحراف بالنظر إلى معيار عصرهم؛ لأن إثبات هذا المعيار يطرح مجموعة من الإشكاليات قد لا يتسنى لنا حلها أو التقليل من خطرها ،وما يميز هؤلاء الشعراء والكتاب ليس بالضرورة ما يختلف به أسلوبهم عن الاستعمال المشترك لعصرهم.

وقد نستخدم مصطلح الأسلوب لإظهار نوعية وظيفية في استعمال اللغة مثل: الأسلوب الصحفي، والأسلوب الإداري، والأسلوب العلمي ... الخ.

ونحدد مصطلح الأسلوب في بعض الأحيان بوصفه اختيارا لاستقبال نص وفهمه وتحليله وتفسيره ضمن مجموعة نصوص موزعة مضامينها في لغة الكتابة والتخاطب لأمة من الأمم،كما نستعمل أيضا هذا المصطلح متوازيا مع القيود اللغوية الصوتية والتركيبية والدلالية وسننها، وفي هذه الحالة يمكن لنا التمييز بين الأسلوب المجازي والحقيقي، وبين الأسلوب الخارجي التقريري،[44] والأسلوب الداخلي الوجداني، والحديث عن أسلوب الخطاب لا ينطبق دائما مع وصف خصائص الكلام.

وهناك نظريات أخرى عن الأسلوب يرجع بعضها إلى القرون الوسطى؛ بحيث يمكن التفريق في ضوئها بين طبقات أسلوبية ثلاث: الأسلوب المنحط والمتوسط والرفيع، وهذا التقسيم لا تعتد به الدراسات الأسلوبية الحديثة، وهو قائم على مبدأ النسبية لأن كل واحد من هذه الأساليب يعد انحرافا عن الآخرين، كما أن مفهوم الأسلوب في العصر الحديث يربط بينه وبين الاختيار في النص، والمرسل والمتلقي ،ومن ثم يكون الاختيار أحد الأسس المعرفية لأسلوبية البناء والمقاصد والآثار.[45]

- **3.4. التحول المعرفي من الأسلوب إلى الأسلوبية في الفكر المعاصر:**

45 -Oswald Ducrot /T .Todorov.Dictinnaire Encyclopédique des sciences du langage.Editins du seuils Paris p .99 -105

يجب البحث عن الأصول القريبة من الأسلوبية في التأملات الخاصة بمفهوم الأسلوب، ويمكن الوقوف عند اتجاهين لهذا التأمل الأسلوبي:

ظهر الاتجاه الأول منذ القرن الثامن عشر ،وظل ينقد الأسلوب انطلاقا من قواعد الكتابة التي تحكم مجموعة الإشارات العملية، أو ما يعرف بوسائل الكتابة الجيدة، وتعتمد أساسا على نماذج الأدب الكلاسيكي الخالدة ؛ وبمعنى آخر فإن هذه الدراسات مازالت لم تتخلص من استمرارية الطرح المعياري أو التعليمي في الدرس الأسلوبي.

وظهر الاتجاه الثاني من خلال تلك التطورات الناتجة عن مقولة (Buffon) الأسلوب هو الرجل نفسه، وتعني هذه المقولة أن الكاتب أو الناثر حين الكتابة يترك في أعماله بعض مميزاته النفسية الفردية متخفية فيه، وهي التي تطبع أسلوبه بطابع خاص يتسق مع هذه المميزات.

واهتم في العصر الحاضر مجموعة من الدارسين لأساليب الخطاب والمعروفين بالبلاغيين الجدد بإعادة تحديد مفهوم البلاغة وميدانها ووظيفتها من خلال تحديدهم لمفاهيم الصور الأسلوبية، وهم في الغالب يستمدون أدوات مناهجهم من الدراسات اللسانية، المعاصرة أكثر من الدراسات البلاغية.[46]

ويتضح التيار البلاغي الجديد اليوم أكثر في الدراسات الأسلوبية عند تحليلها للخطاب ، ويؤكد الدرس اللساني نفسه عن تصور آخر مختلف عن التصور القديم، والإشكالية تكمن دائما في موضوع البلاغة.

والأسلوبية المعاصرة؛ هي الوريث المباشر للبلاغة، وهذا لم يتم صدفة بل إن الأسلوبية قد تكونت في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وأصبحت تعني كل طرق الكلام والعبير والكتابة التي يمكن دراستها بمنهج آني ضمن نظام وسائل التعبير في لغة معينة ؛وهذا النظام يقوم آنذاك بصفة خفية بتجسيد لساني للظواهر الحسية للانفعال، وهذه الظواهر اللسانية الانفعالية كما تصورها (Bally) أصبحت تعني عنده الأسلوبية اللسانية.

46 –Groure (M) .Rhétorique Générale .Editins du Seuils .Paris .1982

وقد انتهت هذه التطورات الخاصة بفهم ظاهرة الأسلوب إلى اتجاهات منهجية يحاول كل منها الاقتراب من فهم مكونات الأسلوب، ووظيفته.

4-3-1 مفهوم الأسلوب والأسلوبية في المقاربة التعبيرية:

إن دراسة الأسلوب بكيفية ربط الخطاب أكثر بصاحبه، قد ساعد على بلورة المدرسة الأسلوبية التعبيرية التي أسسها (Bally) ،وهو أول أسلوبي حقيقي في العصر الحاضر اختزل محاولات الأقدمين وبنى الأسلوبية سنة 1905 بناء جديدا ،و كان يشكل معارضة لعصره بمفاهيمه عن الأسلوب التي تصب كلها في تأسيس وإرساء منهج وصفي قريب من اللسانيات ،وبعيد عن ميدان النقد، ومن ثم فهو لا يهتم بالكتاب والشعراء ولا بأعمالهم الإبداعية، وإنما يهتم بدراسة أسلوب الكلام عامة، وبمعنى آخر فإنه حاول تكوين أسلوبية الكلام وليس أسلوبية الأعمال الأدبية.

ينطلق (Bally) من قناعة بأن الكلام يعبر عن الفكر والأحاسيس، وفي الوقت نفسه فإن التعبير عن هذه الأحاسيس يمثل الهدف الحقيقي للأسلوبية التي لا تعتني عنده بالخطاب المكتوب بقدر ما تهتم بالخطاب الملفوظ الذي يتضمن نوعين من العلاقات: أطلق عليهما الآثار الطبيعية والآثار الموجهة[47] بحيث يختبر بالأولى الأحاسيس التي تلح على المتكلم، وتظهر في أساليب كلامه، ويكشف بالثانية عن طبيعتها اللسانية المجتلبة من القاموس بمبدأ الاختيار، وبدرجة أقل بمبدأ البنية التركيبية، وهذه الأخيرة تمتلك أيضا أشكالا أصلية في حالة التعبير عن الفكرة وهي محملة بعواطف مختلفة.[48]

4-3-2 مفهوم الأسلوب والأسلوبية في الاتجاه الوضعي:

اتضحت مفاهيم هذا الاتجاه الأسلوبي بعد أن سادت روحا جديدة في دراسة وقائع الأسلوب، وبعد أن ظهر أسلوبيان في وقت متأخر هما: (Maouzeau) و (Cressot)، وقد اهتما بوصف الأنظمة الصوتية كلها وتنسيقاتها المختلفة، وأجزاء الخطاب، والبناء

47- يقصد بالآثار الطبيعية والموجهة الاستعمال التقريري والإيحائي،راجع :
Stystique.Presse Universitaire .Paris.1979.p43 P.Guiraud . La
48 -Oswald Ducrot /T .Todorov ,Op. cit . p .99 -105

التركيبي لمعجم الخطاب، وربطا ذلك كله بما هو خارجي عن مكونات مفهوم هذه الخطابات، كما أن هذين الدارسين تخطيا النظام الاستبطاني لـ (Bally) إلى استخلاص لائحة مشتركة لكل صنف أسلوبي له دور وظيفي تأثيري في بنية النصوص اللغوية المقتبسة من بعض نماذج الأدب الكلاسيكي.

4-3-3 مفهوم الأسلوبية الفردية:

بدأت هذه النزعة تتضح مفاهيمها أكثر بعد عشر سنوات من ظهور "بالي" وبخاصة عند الأسلوبي الألماني المشهور (Spitzer) الذي يعد من أبرز الأسلوبيين المعاصرين، وكان يبحث في المرحلة الأولى عن ترسيخ نزعته المرتكزة على كشف الارتباط المتبادل بين الخصائص الأسلوبية للنص ونفسية المبدع: "الأسلوب هو الرجل"؛ومن جهة أخرى فإنه كان مولعا بالكشف عن رؤية المبدعين من خلال أساليب خطاباتهم أكثر من اهتمامه بتفاصيل سيرهم ،ثم تخلى في المرحلة الثانية عن فكرة المبدع الخارج عن النص ؛ ومن ثم صار مفهوم الفعل الأسلوبي أكثر اتساعا عنده عما كان عليه في عهد (Bally)، وقد تحقق ذلك بفضل اعتنائه بوصف أنظمة السياقات الأسلوبية؛ وأصبح في مقدوره إرجاع أثر الأسلوب إلى الفكر والأحاسيس التي أنتجته، ووجهته نحو وجهة معينه، وطبعته بطابع خاص،كما أصبح هذا الفهم لدور الأسلوب يميز أكثر أنماط تجلياته في النص، ويصدم الناقد أو القارئ بكيفية يصعب معها التحقق من أثره، ومن سياقه الدلالي التأويلي النفسي الرمزي، وبهذا توسع أفق الدراسات الأسلوبية نتيجة هذه المقاربات فصارت مشتملة على القسم التنظيري أكثر مما كانت عليه في عهد "بالي"(Bally)، كما أنها أصبحت لا تحددها المقولة التي تذهب إلى أن الأسلوب هو: "التعبير باللغة عن العواطف"، وإنما هي ذلك العلم الذي يقدم وسائل أسلوبية لتحليل النصوص المتميزة، وهذا ما قام به (Spitzer) فيما سماه بتحليل الآثار الأسلوبية التي يعطي الأفضلية فيها لدراسة الأنظمة المتضمنة لنظرة موحدة حاملة لخصائص اللغة من خلال أساليب الخطابات المختلفة.

ومهما يكن من أمر فقد ظل اهتمام الأسلوبيين منصبا حول تحديد الهدف الحقيقي من الأسلوبية، ومن ثم فقد اتجهوا منذ زمن طويل إلى اكتشاف أشياء جديدة في أنظمة الخطاب وبنياته الأسلوبية، أو على الأقل إضاءة أشياء كانت مجهولة، أو استعمال

الخطاب استعمالا أفضل، ولن يتأتى لهم ذلك قبل الوصول إلى أدوات منهجية فنية عند تحليلهم للأسلوب.

كما أن عمليات تشريح الأسلوب بجميع مستوياته، ومكوناته، يتطلب أيضا تكوين أسلوبين فنيين مجهزين معرفيا ومنهجيا بأحسن تجهيز يجمعون بين مهمة اللساني، والمقارن، والمعجمي، والبلاغي، والناقد ومن ثم يكون في مقدورهم التمييز بين كل صنف من أصناف الأساليب، وتصبح من جراء ذلك قضية المترادفات المرتبطة بدراسات "بالي"، لا ترجع فقط إلى علم الدلالة، وإنما تعود أيضا إلى الافتراض القائل بأن الاختلاف بين مترادفين ليس شيئا آخر بعيدا تماما عن المظاهر الأسلوبية للخطاب بحسب"نظرية إسقاط محور الاختيار على محور التوزيع لـ (Jakobson)؛ وهذا الفهم لا يترك أية هوة بين الأسلوبية من جهة، والمرجعية من جهة أخرى في مواجهتها للمعنى.[49].

وإذا كان إدراك دور الأسلوب قد توقف عند تحديد (Bally) فهو أيضا يتضمن دائما وظيفة أسلوبية حتى وإن كانت تبدو في بعض الأحيان غير واضحة وعابرة، وهذه الوظيفة قد نلمسها أكثر في إعادة تحديد ميدان الأسلوبية الذي يفترض أن كل خطاب لغوي يحمل في نسقه من العلاقات والقوانين، والتناقضات يصعب علينا تفسيرها بإواليات اللغة وحدها، وإنما يتم ذلك بشكل أفضل حين نرجعها إلى أسلوب الخطاب ،ومن ثم تصبح أكثر قابلية للفهم و التفسير و التأويل.

ثم أصبحت مهمة الأسلوبية المعرفية إدراك أسلوب كاتب معين، ومن ثم اعتبار مجموعة الطرق اللغوية التعبيرية المبوبة والمصنفة والمحللة داخل العمل هي نتاج رؤية كاتب للعالم، ومهما كانت التفسيرات التي نقدمها الآن عن فكرة ما نعده أسلوبا أدبيا كما يفهمه (Spitzer) مثلا؛ فستبقى مقاربة (Bally)،و (Spitzer) تعترضهما صعوبة منهجية تخص جوهر مستوى التعرف على الأساليب وتطورها لكون تمظهرها ليس حدسيا حسيا فقط بل فكريا أيضا ،وهذا ما يسمح لنا بالتمييز بين أسلوب أكثر دلالة من غيره من الأساليب الأخرى.

49- Ibid. p .99 -105

4-3-4 مفهوم الأسلوبية البنيوية :

يمكن لنا التأصيل المعرفي لأسلوبية وصفية في حالة تأسيسها على تحديد الأسلوب بكونه انزياحا بالنسبة إلى معيار، والانزياح يمكن معرفته سواء بتطبيق طرق الإحصاء على مجموعة نصوص وأساسا من معجم مفرداتها كما حددها (Pierre Guiraud)، وأطلق عليها الأسلوبية الإحصائية أم بحسب ما طرحه(Riffaterre) في ثقته في القارئ الحاذق العادي المتوسط الذكاء، للكشف عن مكونات الأسلوب في أي كلام أو خطاب أو كتابات، لكن الإشكال المعرفي يبقى قائما من حيث الشك في قدرتنا في الحالة الراهنة على تحديد المعيار الذي يعد سندا معرفيا للكشف عن أسلوبية الانزياح ، وهذا العجز المعرفي لأسلوبية الانزياح أدى إلى تأسيس الأسلوبية البنيوية كما هي عند (Riffaterre)، وهي أقرب إلى السيميائية .

4-3-5 مفهوم الأسلوبية السيميائية :

ستكون الأسلوبية بمنهجها السيميائي عند (Blith) مهيأة أكثر لوصف الأثر الأسلوبي الذي يرجع إلى شكل المحتوى بالإضافة إلى تعبير الخطاب المتوقع من اختيار مستوى ملائم لوصف معرفي أسلوبي، وبغير هذا المنهج لا تظهر له أية أهمية.

وعلى الرغم من هذه اليقينية الأسلوبية ذات المرجعية الثلاثية فإن هذا الدارس نفسه يعترف بصعوبة التحديد ،وفي رأيه فإن ذلك يعود "إلى أن هذه الكلمة لا تخص المجال اللساني وحده ،بل استعملت في مجالات أخرى عديدة من مجالات الحياة اليومية والفن ،ومن ثمة يمكن لنا التحدث عن "الأسلوب "في الموضة، والفن، والموسيقى، وشؤون الحياة من قضية مائدة الأكل إلى السياسة ...الخ.

وقد يرجع أيضا إلى تعدد أنماطه والتمييز بين مستوياته ،كما يعود إلى كثرة مدوناته الاصطلاحية نحو: أسلوبية السجلات ،والتلقي ،والانزياح ،والروائز الاجتماعية، والسياقية، والوظيفية، والبنيوية، والتوليدية–التحويلية، والإحصائية. [50]

50- هنريش بليث ،البلاغة والأسلوبية ،ص33.

وهكذا فإن ظاهرة الأسلوب تحضر بدرجات متفاوتة عند الدارسين المحدثين الذين يركزون في مناهج دراساتهم للخطاب الأدبي على مكونات الأسلوب ومستوياته، ويمكن لنا أن ننظر إلى هذا النوع من الدراسات ضمن رؤيتين :

الأولى تطورية وصفية تصنيفية يهمين عليها الفكر النقدي المتحرك داخل منظومة من الأدوات الإجرائية والتي لا تتفاوت في قراءاتها التأويلية الجمالية للأسلوب، وبما تعتقده في عمليات الإفراغ والشحن للأدلة التي لا تكون أبدا بريئة في إبلاغها التلقائي من تقاطع بين وعي ولاوعي النص والمتلقي المشبعان بحال السياق النفسي والاجتماعي والحضاري والروحي.

والثانية كالأولى في طبيعة رؤيتها ولكنها تختلف عنها في كونها يهيمن عليها الاهتمام الأسلوبي من حيث مفاهيمه المعرفية المدرجة ضمن علوم قديمة معروفة كلها تعنى بإواليات التشكيل والبناء وطرق الدلالة والتأويل، وتحاول الاستفادة في الوقت نفسه من منجزات علوم الأدب المستحدثة بجميع مدارسها وفلسفاتها وتطبيقاتها على مدونات نصية مختلفة.

وجماع القول فإن هذا البحث قد أوصلنا إلى بعض النتائج ومنها:

1. إن دراسة الأسلوب تحمل إرثا تأصيليا ضخما في الفكر المعرفي العربي القديم، وكان النظر الحقيقي للأسلوب منطلقا من دائرة محورية هي :"ظاهرة إعجاز الأسلوب القرآني ".

2 . إن إدراك الأسلوب في المرحلة الأولى لم يتجرد عن أدبيته، ولم يحقق وجوده إلا ضمن المتلقي الحبيس في ضمنيته السلبية، وفي المرحلة الثانية كان الأسلوب ضمن ثنائية غير متكافئة بين تجارب إبداعية كاملة وإدراك ناقص، وفي المرحلة الثالثة نشأ نوع من التكافؤ بعد النجاح في الإدراك الكامل لهوية الأسلوب الباقي في مقابل الإنسان الفاني، ومن ثم يتجه التفكير إلى التعرف على هذا الباقي في غياب الفاني.

3. إن الأسلوبية أصبحت علما يتطور لكنها وصلت إلى مأزق منهجي، ومازال الاجتهاد حولها مركز اهتمام النقاد والبلاغيين، والسيميائيين والشعريين والفلاسفة وعلماء النفس.

4. إن الأسلوبية قبل أن يتحدد مجالها المعرفي، وتصبح علما في بداية القرن العشرين قد كانت قضية من قضايا الفكر اللساني والبلاغي والنقدي، الأمر الذي أضفى عليها غموضا في أدواتها المنهجية ومصطلحاتها المستعصية على الفهم العلمي.

5. إن الأسلوب الحق هو الروح المحركة لتاريخ الإنسانية نحو مقاصدها السامية الحضارية، وعبقريتها في إبداع أنساقها المعرفية، وطرائقها في التفكير، ومواجهتها لكل طارئي في حياتها، ومنهجها في زيادة تعرفها عن واقعها بأساليب لها القدرة على اختزان كل ما تريد اختزانه ، والدلالة عليه. [51]

المراجع :

-- نور ثروب فراي، تشريح النقد، ترجمة محي الدين صبحي، الدار العربية للكتاب-ليبيا ،1991.

-بن منظور: "أو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، مادة "أسلوب" الطبعة الأميرية بولاق الجزء الأول، القاهرة، 1300هـ .

– ابن هانئ الأندلسي ، الديوان ، دار صادر ، بيروت ،1400– 1980.

– ابن رشيق ، أنموذج الزمان في شعراء القيروان ،جمع وتحقيق محمد لعروسي المطوي وبشير البكوش،الدار التونسية للنشر والتوزيع ،تونس 1406هـ1986.

– C.D. الموسوعة الشعرية ، برنامج البحث "مادة أسلوب"

– سورة الحج ،الآية ،73.

– صلاح فضل، علم الأسلوب، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ،ط1 ، 1405هـ– 1985م .

– الجرجاني، أبو الحسن علي بن محمد ، التعريفات، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ،ط 1 (د.ت)

– الكفوي ،أبو البقاء أيوب ، الكليات، مؤسسة الرسالة ،بيروت ،ط1 ، 1412هـ 1992 م .

– هنريش بليث، البلاغة والأسلوبية ، ترجمة محمد العمري، منشورات دار سال ،الدر البيضاء –المغرب(د.ت).

– المرزوقي, شرح الحماسة، "مقدمة المرزوقي" م1 ، تحقيق أحمد أمين ،وعبد السلام هارون ،دار الجيل ، بيروت ، ط1 ، 1411هـ– 1991م.

- ابن رشيق ، العمدة ، 186/1

– عبد القاهر الجرجاني ،دلائل الاعجاز، تحقيق السيد محمد رشيد رضا،دار المعرفة ن بيروت ،1402هـ–1981م.

-حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء ،تقديم و تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة ،دار الغرب الإسلامي ،بيروت ،ط3 ، 1986 .

– محمد الهادي الطرابلسي " مظاهر التفكير في الأسلوب عند العرب " قضايا الأدب العربي ،مركز الدراسات، الجامعة التونسية 1978،

– علي أبو ملحم ،في الأسلوب الأدبي ،المكتبة العصرية ،بيروت ،1968.

51– هنريش بليث ،البلاغة والأسلوبية ،ص33.

- فايز مقدسي ، الأسلوب وجدلية اللغة العربية،دار العودة ، بيروت ، (د.ت).
- Paul Riceour, La Métaphore Vive , Editions du Seuil , Paris.1975.
− J.P. de Reaunachais, Daniel couty Alain Rey , dictinnaire de la litterature de langue francaise, Bordas, Paris, 1989, p:684
- J. Greimas et J. courtés, Semiotique dictionnaire raisonné de la théorie du langage, Hachette .Paris.
-Oswald Ducrot /T .Todorov.Dictinnaire Encyclopédique des sciences du langage.Editins du seuils Paris p .99 -105
–Groure (M) . Rhétorique Générale . Editions du Seuils . Paris .1982
-P. Guiraud . La Stystique.Presses Universitaires . Paris.1979.